

التوظيف الأسطوري والتاريخي والديني

ذكر الناقد عبد الله رضوان في كتابه «القدس في الشعر العربي الحديث»: أن مدينة «يبوس» أصبحت رمزاً للحضارة الكنعانية المبكرة، ثم تغير الاسم إلى «أورسالم» ثم «إيليا» ثم «القدس». رغم أن الحفريات والوثائق المصرية القديمة تثبت عكس ما ذهب إليه الباحث، فـ«أورسالم» أي مدينة السلام هي التسمية الأولى لمدينة القدس، وهو اسم الإله الكنعاني حامي المدينة، ثم أخذت اسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين المتفرعين من الكنعانيين، وهذا الاسم نسبة للملك اليبوسي «ملكي صادق»، وهو أو من بنى يبوس، وظهر فيما بعد اسم «أورشليم» في الكتاب المقدس في سفر يشوع، وهو عبارة عن نحت من «أورسالم» الاسم الكنعاني القديم، ويعني «موقع مخصص لعبادة الله وخدمته.

وقد وردت في الكتاب إشارة لاستخدام الشاعر تميم البرغوثي «مثنى الأضلاع»، وهي إشارة لقبة الصخرة، تقول إشارة الباحث: «والإشارة هنا إلى قبة الصخرة ذات الأضلاع الثمانية، باعتبار المثنى جزءاً رئيساً من جماليات التشكيل الفني العربي الإسلامي، ومصدره الآية القرآنية الكريمة «ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية». ص 17.

في حين يقول الدكتور عفيف البهنسي في بحث له قدّم ضمن أبحاث الندوة السادسة: يوم القدس، في عمان بتاريخ 205 تشرين الأول 1995، بعنوان «هوية القدس العربية والإسلامية»: النجمة الثمانية التي تعبر عن مفهوم الكون وخالق الكون في الفكر الإسلامي، والتي تتألف من مربعين متقابلين بمركز واحد. مربع يمثل الجهات الأربع كما هو مربع الكعبة المشرفة ومربع آخر يمثل عناصر الطبيعة الأربعة: الماء والهواء والنار والتراب». فطالما أن البحث يخلو من أية مرجعية أو توثيق علمي، فالآراء الواردة أو

اجتهادات الباحث تبقى بعيدة كل البعد عن البحث العلمي المتقضي. ودليل ذلك كشف بأسماء الشعراء وقصائدهم في نهاية الكتاب لا يؤثّق المصدر بأي حال من الأحوال⁷². من الصعوبة بمكان أن نحصر عدد الكتب والمقالات التي تناولت القدس في الشعر العربي.

إن أغلب الباحثين، قد درجوا على رصد تلك العلاقة، ابتداء من عام 1948 تاريخ النكبة وبداية الشتات والألم العربي المقيت، غير أن بعض الملاحظات جديدة أن ترد في هذا المقام، ومنها أن كثيراً من هذه الأغراض والفنون والأساليب تتطور بمرور الزمن. فبعض الأغراض لا يعرف النقاد لها بداية، بل ظنها البعض أنها جاءت مع الشعر والبيئة وربما قبلها.

وحين نتحدث عن تجليات القدس في الشعر العربي عامة وعن خصوصيتها الفلسطينية النادرة وحالتها النضالية نذكر أسماء بارزة لشعراء عرب وفلسطينيين عبر حقب زمنية متفاوتة أمثال: راشد حسين ومحمود درويش وعلا الشروف، وفي قصائد مظفر النواب ونزار قباني وعرار وعبد الرحيم محمود وعمر أبو ريشة وعبد الغني التميمي وأحمد مطر ومحمد مقدادي والمتوكل طه ولطفي الياسيني ومحمود درويش وهارون هاشم رشيد وسليمان العيسى وعمر أبو ريشة وإيليا أبو ماضي وزكي قنصل وعلي الخليلي ومحمد حلمي الريشة والأخوين رحباني وفدوى طوقان وحنا أبو حنا ويوسف العظم وأمين شنار ونيلة الخطيب وعبد الغني التميمي وعلي محمود طه ومظفر النواب ومصطفى النجار ونايف أبو عبيد وشادي المناصرة... وغيرهم الكثير الكثير مما لا يتسع المجال

⁷² عبد الله رضوان: «القدس في الشعر العربي الحديث»، ص 17.

لذكرهم فهم باقون في ذاكرتنا الأدبية ووعينا الجمعي بما قدموه من نضال الكلمة والفكرة
والعاطفة.

وإن حُقَّ لي أن أستشهد ببعض قصيدة أقول في قصيدتي (قالت له):⁷³:

هَلْ يَكْتُبُ التَّارِيخُ هَذَا الْيَوْمَ؟؟

مِنْ أَيِّ الْقُلُوبِ سَتَرْجَعُونَ

مِنْ أَيِّمَا وَطَنٍ وَأَنْتُمْ قَابِعُونَ

كُلُّ الْأَرْضِ مَوْطِنٌ لِي

غَيْرَ أَنَّكَ يَا فِلَسْطِينَ الْجَمِيلَةَ مَوْطِنُ الْأَخْلَامِ

وَسَمَّ لَا انْمَحَاءَ لَهُ عَلَى جُرْحِ الدُّرُوبِ

سُحِبْتُ فِلَسْطِينِيَّةً تَرْوِي احْتِرَاقَاتِي

أَنْزِنُ بِلَابِلِ الْغَيْثِ الطَّرُوبِ

وَالْأُمْنِيَّاتُ مَعَ الصَّبَاحَاتِ الَّتِي رَحَلَ الْبَنْفَسُجُ مِنْ حَدَائِقِهَا

وَوَغَابُ النُّورِ عَنْ طُرُقَاتِ أَوْرَدَةِ الْحِكَايَةِ

إِنَّمَا كَانَتْ وَسُوفَ تَظَلُّ مَا شَاءَتْ تَكُونُ

⁷³ مصاروة: ديوان بتول لغتي، ص 150 / 151.

اسماً تُرَدُّهُ الْمَعَايِمُ وَالْمَنَابِرُ وَالْعَوَاصِفُ

ويبقى لنا وقفات مع شعراء أفذاذ على اختلاف ألوانهم الشعرية في نصوصهم سواء
أكانت عمودية أو تفعيلية أو قصيدة النثر التي استحوزت على ذائقة جمهور عريض من
رواد وقراء الأدب العربي فهذا الفلسطيني اليافع - يقول في قصيدة له بعنوان " في
القدس":⁷⁴

للقدس..

نكهة نبوءة تئن في خُشوع الياسمين؛

وصمت الحمام

هناك وعلى بُعد موتين

تُشَقُّ الأمانى

وتُضَلَبُ

قوافي الصالحين؛

وتمتأت المطر

.....

ولازالت

⁷⁴ ماهر الطردة، ديوان بلقيس نبوءة السلام، ص 21 / 20.

جنازةً للسماءِ تسعى

وئالة الموتِ

تشبع من خاصرة السنابلِ

والأرض ضاجعوا بكارتها

يهودٌ

زَنُوا في مجراها ولَوَّثُوا شهوة العابرين للحياة

تبا لعراة العروبة ؛

يَشْتَهون قِمَمًا بِمِزاجية القناصلِ...

هنا يصور لنا الشاعر مدينة الأنبياء مستنكرا غفلة الحكام وتخاذلهم مييناً حال القدس في ظل إلحاح المحتل على تهويدها واستبدال ملامحها في سعيهم لإحباط العزيمة الفلسطينية، في حين أنها ثابتة لا تلين ولن تسكين رغم غفلة المتخاذلين. فقد يقول في موضع آخر من القصيدة⁷⁵ :

هَوَّنُوا عَلَيْكُمْ

في القدس من للقدس

لا ولن تُسْرِقُ المروءة

⁷⁵ ماهر الطردة، ديوان بلبقيس نبوءة السلام، ص 21 / 20.

منْ بَنْدُقيّةِ ثائرٍ

ما عَهدُنا العَزيمةَ تُزَفُّ منْ رَحمِ أنثى

ولا مَنّا منْ لأمِّه غادرٍ

نبيعُ بِنَقودِ الموتِ أشبالنا

ولا نُغادرُ

ولا يفوتني أن أستشهد بالشاعر الفلسطيني ابن الشعراء وسليل الأدباء "تميم البرغوثي"⁷⁶:

مررنا على دار الحبيب فردنا عن الدار قانون الأعادي وسورها

فقلت لنفسي ربما هي نعمة فماذا ترى في القدس حين تزورها؟!

ترى كل ما لا تستطيع احتماله إذا ما بدت من جانب الدرب دورها

فالشاعر جاء لزيارة القدس، فردّه يهود ومنعوه من زيارتها بما وضعوه من أنظمة وقيود، وما سنوه من قوانين، وضعوها حسب أمزجتهم ووفق هواهم، تحول بين أهل فلسطين وبين زيارتها أي زيارة القدس ودخولها. كما يحول سور القدس المغلقة أبوابه بأعداد كبيرة من جنود يهود، جنود الاحتلال البغيض، المدججين بالسلاح والهرارات، يمنعون أصحاب البلاد الشرعيين من دخولها والوصول إلى مقدساتها. وفي نفس الوقت

⁷⁶ تميم البرغوثي، ديوان في القدس، 1-12.

يدخلون إليها كل شذاذ الآفاق من مختلف الجنسيات كالروس والإثيوبيين ويجندونهم ويحملونهم السلاح للفتك بأهل البلاد الشرعيين.

ويذكر لنا في قصيدته: القدس وسورها، والقدس وصخرتها المشرفة، اسمعه يصف قباب مساجد القدس وصخرتها المشرفة بقوله⁷⁷:

في القدس يزداد الهلال تقوسا مثل الجنين

حدبا على أشباهه فوق القباب

تطورت ما بينهم عبر السنين علاقة الأب بالبنين

في القدس أبنية حجارتها اقتباسات من الإنجيل والقرآن

في القدس تعريف الجمال مضمن الأضلاع أزرق

فوقه- يا دام عزك- قبة ذهبية

تبدو برأبي مثل مرآة محدبة

ترى وجه السماء ملخصا فيها

تدللها وتدنيها

كما ويذكر لنا تميم سوق باب خان الزيت والعطارين ومدارس القدس في عهد المماليك، وهي كثيرة ومنتشرة داخل سور القدس، وأكثرها قريب من المسجد الأقصى،

⁷⁷ تميم البرغوثي، المصدر السابق، 12-18.

ويذكر لنا قبور القدس وشواهدا المكتوبة بكل لغات الأرض، والتي تضم مختلف الجنسيات، استمع للشاعر يقول في ذلك⁷⁸:

فالقدس تقبل من أتاها كافراً أو مؤمناً

أمرر بها واقراً شواهدا بكل لغات أهل الأرض

فيها الزنج والإفرنج والقفجاق والصقلاب والبشناق

والتتار والأتراك، أهل الله والهلاك،

والفقراء والملاك، والفجار والنسك

فيها كل من وطئ الثرى.

ويركز تميم في قصيدته على القدس، حتى ما يسمونه اليوم بالقدس الغربية، فيذكر بائع خضرة من جورجيا، وكهلا جاء من منهناتن، يفقه فتية البولون في أحكام التوراة.

ويصف شباب القدس ورجالها دون الخمسين، الذين يمنعون من الصلاة، أروع وصف وأخصر قول وأجمل بيان، وخير الكلام ما قل ودل، يصف ذلك بقوله⁷⁹:

في القدس صلينا على الإسفلت

في القدس من في القدس إلا أنت

⁷⁸ تميم البرغوثي، ديوان في القدس، 18-21.

⁷⁹ تميم البرغوثي، ديوان في القدس، 21.